

عائد من الظلام

بقلم / أعلام النصر

قِصَّةٌ مَثَلٌ لواحدة من جرائم الصَّليب



عائد من الظلام!

- الحلقة التاسعة -

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قصة:

عائد من الظلام!

- الحلقة التاسعة -

#بقلم: #أحلام-النصر

(قصة مثل لواحدة من جرائم الصليب)

#قناة-مؤسسة-أوار-الحق



سَفَحَ "أحمد" دموعَ الألم وهو يوارى جثتي صديقيهِ التراب، ونهض بعد أن أنهى دفنهما ودعا لهما بالقبول والثبات عند السؤال، وتلفتَّ حوله ليتفحص المكان قليلاً، ثم أخرج من جيبه بوصلته التي لا يستغني عنها؛ ليحدد موقعه بشكل أفضل؛ كانت الخطة دقيقة وقد أدت نتيجةً برغم ارتقاء بعض الأبطال؛ حيث تأكدت المجموعة من سلوك الجنود الكفرة لهذه الطرق من جهة، وتمكنت من مناوشتها لتغطية مرور جماعة مجاهدة إلى طرق أخرى لم تكن تحرسها سوى هذه المجموعة التي تصدّوا لها، كما وأن النتيجة الثالثة: أن الارتباك ساد صفوف الكفار؛ فهم ما كانوا يعتقدون أنهم سيواجهون أحداً في هذا المكان النائي، ولا شك أنهم يظنون وجوداً للمجاهدين على مقربة منه؛ الأمر الذي سيجعلهم لاحقاً في متناول كمين سهل تطويقه والإحاطة به؛ فكان المجاهدين بعيد جداً في الحقيقة، إلا أنهم يحومون في تقدّم صبورٍ لعدة اتجاهات مترامية؛ حتى يشتتوا أعداءهم.

وتمكن "أحمد" من العثور على بعض العلامات، وبعد وقتٍ ولأني تحامل خلاهما على نفسه: وصل إلى أميره وإخوانه، ووجد أن مجموعة "عروة" قد وصلت كاملة بخير، عدا عن إصابات متوسطة لبعضهم، وإذا استقبله الجميع بحفاوة ولهفة، معربين عن قلقهم لكونه وحده؛ فقد أخبرهم بألم عن ارتقاء "جعفر" و"عمار"، وفقدانه لأثر "عثمان" الذي كان ملازماً له وردّءاً لظهره، الأمر الذي دفع بالأمير إلى التوجيه بالاعتناء بجراح "أحمد" وخدوشه، والتفكير في احتمالية بقاء "عثمان" على قيد الحياة، أرسل بعدها مجموعة للتقصي والبحث، وزودهم بتعليمات مناسبة، وغادرت المجموعة مشيعةً بدعوات التوفيق والحماية.

كانت الشمس تكاد تشرق، بينما كان بضعة شباب جالسين على شكل دائرة تتوسطها خارطة صغيرة، تقدح أعينهم بذكاء متوقد، ويتكلمون برصانة وحكمة، وهم يتناقشون في الخطة التي أعدّها قائدهم وطلب منهم النظر فيها من باب التشاور في الأمر قبل البت فيه؛ وذلك بناء على معلومات مهمة ودقيقة وصلته من مصادره، وأعاد أحدهم النظر في الخريطة، وقال مشيراً إلى نقطة معينة:

- إذاً لنلخص: في البداية؛ فقد "أحمد" أثر "عثمان" هنا، ولم يعثر على جثته في الوقت نفسه؛ مما يرجح عدم موته، كما أفاد "حسان" بعد عودته ومن معه من مهمتهم الاستكشافية: بوجود حافلات مدنية تقدّم كل يوم بانتظام، لتختفي في مكان ضمن الغابة نفسها، بعيداً عن المدن، يعلوه رمز الصليب الأحمر، إلا أن أوامر القائد لم تتضمن الاقتحام؛ فعادت المجموعة بهذه المعلومة شديدة الأهمية.

ورفع رأسه نحو الباقيين، وقال:

- هل نتوقعون إذاً أن يكون "عثمان" في مكان ما هناك؟

هز "مثنى" رأسه، وقال وهو ينظر إلى الرسم المتخيل لذلك المكان في الخريطة:

- إنني أدعم هذه النظرية، لا سيما إذا أخذنا في الحسبان أن أخانا "حسان" ومن معه قد مشطوا المنطقة التي أشار إليها "أحمد" من ثمانية الزوايا، ولم يعثروا على أي مكان قريب آخر غير هذا البناء، وبما أن رمز الصليب موجود؛ فعلى الأرجح أن

يكون أخونا "عثمان" هناك، لا سيما، ولا يوجد دليل يؤكد مقتله خلال الاشتباك، بل ربما كان مصاباً، في المحصلة: كل شيء وارد.

هز البقية رأسهم، وقال "سعد":

- فعلاً إن كل هذا ممكن، وهو وإن كان لا يرقى إلى مستوى اليقين القطعي؛ إلا أنه يكفي لنسلك فيه خطة القائد.

ونقل ناظره بين إخوانه، وهو يتابع قائلاً:

- فإن كان "عثمان" هناك فعلاً أنقذناه، وإن لم يكن فلا شيء لدينا لنخسره؛ المكان بعيد جداً عن نقاط تركزنا، كما لن نعدم أية حجة لتغطية شخصياتنا؛ على سبيل المثال: ما أكثر اللصوص الذين يسعون خلف ذهب الكنايس!

ابتسم المجاهدون، وقال "مثنى":

- أفضل أن أكون ضمن طاقم الحافلة التي بلا شك أنها تجلب المؤن إلى ذلك المكان.

قال "سعد" باسمًا:

- أعرف، وتلك هي خطة القائد بالضبط، وعلينا أن نتخيل آلية تطبيقها؛ لنعرف نقاط النجاح والفشل.

قال "صهيب":

- لا بد وأن نقوم أولاً باختبار شبكة الإرسال هناك كذلك؛ فإن الحافلة لن نتوقف لمجرد أن نطالبها بذلك، بل ستعتمد إلى طلب النجدة.

قال "مثنى" مؤيداً:

- أحسنت يا أخي، ملاحظة ذكية، وهذه تتركها لأخينا الخبير "معاوية"؛ لأننا غالباً لن نكون مستعدين لمواجهة أية إمدادات؛ فالبحث عن "عثمان" واستنقاذه إن كان موجوداً، أو التظاهر باللصوصية والانسحاب بسلام إن لم يكن هناك: هو النتيجة التي سنكون في إحدى كفتيها بإذن الله تعالى...

وقطع كلامه، واستدار نحو شاب متحمس يقترب من دائرتهم، ويهتف:

- هيا! يكفي الآن وأكلوا نقاشكم بعد الطعام!

ووقف وهو يفرد ذراعيه في الهواء، ويتابع بنفس الحماس:

- قوموا وأدّوا صلاة الضحى؛ فقد أشرقت الشمس منذ زمن، وتفضلوا بعدها لتناول الإفطار! مطعم "علي" الشهيُّ يرحب بكم!

ابتسم المجاهدون على طريقته الاستعراضية لا سيما في نطق الجملة الأخيرة، ونهضوا وصلّوا الضحى، ثم اتجهوا إلى مكان الطعام، وما أن وصلوا حتى ابتسم "سعد" وقال بطرافة، وهو ينظر إلى المائدة المتواضعة:

- ما أجمل الثقة بالنفس!

والتفت إلى "علي"، وسأله:

- إذا فهذا ما تسميه بالمطعم يا طبّاخنا الموهوب؟

ابتسم "علي" وقال ببراءة:

- ألم أقل لك؟ فخامة الاسم تكفي!

ضحك الجميع، وتناولوا الإفطار في جو تسوده الألفة كعادتهم، ثم مضى كل منهم إلى شأنه، والتفت الدائرة السابقة لتكمل ما بدأت قبل موعد اجتماعهم بالقائد بعد صلاة الظهر؛ لبحث ما يحتاجونه من أدوات وتكتيكات أخرى لتنفيذ الخطة.

(٢٢)

وضع "سيدراك" ساقاً فوق أخرى، وهو يشمخ برأسه باستعلاء، وينخر بأنفه بغرور، ويرمق بطرف عينيه هرولةً الجميع وهم يسعون في خدمته، وينظّمون الأشياء الخاصة في مواقعها على مسافة مناسبة من الضحايا البائسة، التي تلبس الأسمال، وتنشبه بالموثقى في الشحوب والصمت؛ استعداداً لتصبح منهم فعلاً.

وتسلل "مارك" باتجاه "مادو"، وهمس في أذنه:

- لقد وعدتني يا "مادو"!

همس "مادو":

- لا تقلق يا سيدي!!

- جيد!

وأكل "مارك" طريقه ليتخذ مكانه بين القساوسة وضيّفهم الكئيب "سيدريك" المسؤول المهم القادم من الكنيسة.

وزفر "سيدريك" بملل؛ فأشار "ألفرد" إلى "ألبرت" إشارة خاصة؛ فهزّ الأخير رأسه بفهم، وأعطى إشارة البدء.

ورفع "مادو" البندقية، وسدّد فوهتها باتجاه الطفل المدعور الذي يرتجف كورقة في مهبّ الريح، وتلاقت نظراته بالعينين الخاويتين اللتين أفلتتا دموعاً خرساء، بللت وجهه الشاحب، كان "مارك" سعيداً متفائلاً؛ إذ هو ذا شيء الخالص المفضل يبدو واثقاً قوياً، ولحد الآن: الأمور تبدو بخير؛ لا ارتعاش، لا ارتجافة، لا نظرات حائرة غبية، وقد استعد وواجه الهدف بثبات، لم يبقَ إذاً إلا تلك الطلقة اللعينة التي طال انتظارها.

ولكن..

ووقف "مارك" هائجاً مصدوماً، وصرخ:

- "مادو"! ماذا تظن نفسك صانعاً أيها الأبله؟!

كان "مادو" قد حدّق باتجاه الطفل بتركيز ليقتله فعلاً، غير أن توازنه اختلّ قليلاً، وبدا كأن عقله قد تسلل لحظةً إلى عالم آخر، ونظر "مادو" إلى ما يُفترض أنه ضحيته القادمة؛ فقرأ رسالة العيون التعيسة، إضافة إلى ومضات في عقله: امرأة باكية، صوت باكٍ ينادي على اسم مختلف، صوت شرير في عقله يأمره بالقتل، فأغمض

عينيه بشدة، ثم أرخى ذراعَه، ليواجه صرخات القس المجنون، والتفت "مادو" قائلاً ببساطة، بعد أن ألقى البندقية جانباً:

- أعتذر يا سيدي؛ أنا حقاً.. لا أستطيع، بالأحرى: أنا.. لا أريد!

صعق "مارك"، وصرخ:

- لا تريد؟! أيها الأحمق! أحمقاً لا تريد؟!

واتجه نحوه كالسهم، وأمسك بخرقته صارخاً، وهو يهزه بعنف:

- مَنْ أنت لتريد شيئاً في هذه الحياة أو لا تريد؟! أيها الصرصار التعيس!! كيف تجرؤ؟! في البداية تلك الإغماءات الغبية، والآن تقول إنك لا تريد!! هكذا ببساطة ترمي جهودي الطويلة دون ذرة إحساس!!

وألقاه على الأرض، ثم صرخ:

- خذوه من وجهي! خذوه إلى السجن!! بسرعة!

واندفع "باندري" و"ستيف" باتجاه "مادو" الذاهل لتنفيذ أمر القس "مارك"، واقتاداه إلى السجن.

كان رجل الكنيسة واقفاً يراقب المشهد، وجهه الأحمر ينبئ عن إفراطه في الشراب، وقد زاده الغيظ والغضب احمراراً، لكنه حافظ على تماسكه الظاهري، وحين عاد "مارك" إلى كرسيه متخاذلاً محبطاً؛ قال له رجل الكنيسة ببرود:

- إذا فهذه هي فكرتكم عن الإنجازات التي دعوتوني لأشاهدها؟!

قال "مارك" متوسلاً:

- صدقني يا سيدي إنني لا أعرف كيف أشرح لك، لكن ما زال عندي "أشياء خاصة" غير ذلك الأبله.

اتسعت حدقتا رجل الكنيسة، وظهر الشرر منهما برغم نظاراته، وقال بحسم:

- لا يا "مارك"! لا شيء يصلح الأمر؛ إنك رفعتَ لنا اسمَ ذلك الصرصار بالذات، وقد رأيتُ بنفسِي رفضَه ووقاحتَه..

وتابع وهو يبتسم باستهزاء:

- حتى أنه رفض بدون أن يكون بطلُك في قصصك المسلية عن الإغماءات!!

اختلس "مارك" نظرات غاضبة باتجاه "ألفرد" الذي كان يرمقه ساخراً، وضحك القساوسة جميعاً ضحكات صفراء، بينما هتف "مارك":

- صدقني إن ذلك كله كان صحيحاً! هذا الشيء الخاص أتعبني كثيراً!!

التفت رجل الكنيسة إلى القساوسة، فتنحى "ألفرد"، وقال:

- في الواقع؛ إن القس "مارك" كان لديه من الأعباء ما يزيد عن حاجته، وأقترح يا سيدي أنه سبب كافٍ يشفع لتقصيره في تربية "مادو" المغفل.

رمى "مارك" "ألفرد" بغضب مجدداً، بينما ابتسم الأخيرُ بنخب، فهتف رجل الكنيسة غاضباً، وهو يتأهب للمغادرة:

- حفنة بأسة من الحمقى! من الجيد أن مسؤولي الكنيسة الكبار لم يحضروا هذه المهزلة!!

هتف "ألفرد" بسرعة:

- اصبر يا سيدي من فضلك!

وأوماً بتعالٍ واحتقار إلى شيء الخاص "رافي"؛ فاندفع هذا بآلية ثلجية، واتجه إلى الطفل المسكين، وأرداه قتيلاً دون رحمة، فانفجرت أسارير رجل الكنيسة أخيراً، وسمح لابتسامة مقية باهتة أن تتسلل إلى وجهه الشرير، ثم ربت على كتف "ألفرد" قائلاً:

- أحسنت يا "ألفرد"! هذا ما يمكن تسميته بالعمل الصحيح.

وتابع بلهجة ذات معنى:

- لا تردد، لا رفض، لا قصص سخيفة عن أشباح الليل والكوابيس والإغماءات!

ضحك "ألفرد" بنصر وشماتة، واستعد رجل الكنيسة للانصراف، وبينما كان يمر بجوار "مارك" الذليل المنكسر؛ قال له:
- سيتم خفض رتبك أيها القس الفاشل!

رفع "مارك" رأسه ذاهلاً، وحاول قول شيء، إلا أن رجل الكنيسة أشاح بيده في وجهه لينعه من الكلام، ثم انصرف، تشييعه نظرات "ألفرد" المنتشية، ونظرات "مارك" المصدومة الفارغة!

انتهت الحلقة التاسعة

...يتبع

